تيارا فلسفة الحقوق (تابع)

المبادئ الفردية والاجتماعية

بقلم الاب فليكس سوانيون اليسوعي

٨ ــ التيار المزدوج في الفلسفة الكاثوليكية الحديثة

يدين مذهب ديكارت بما كان له من حظ لتياب الفلسفة التقليدية وفلسفة كنت ، ولا يعنيني هنا ان اذكر اسباب انحجاب فلسفة القديس توما ذلك الانحجاب الطويل .

ففي القرن التاسع عشر مع ده بونالد (١٧٥٤—١٨٤٠) (de Bonald) ومع لامنه (١٧٨٢—١٨٥٤) (Lammenais) ساد المذهب الذي يرجع اصل المعارف الى الايمان ومن ثم وعلى اثر روسميني (١٧٩٧—١٨٥٥) (Rosmini) راجع المذهب الانتولوجيسم وكان هذان المذهبان سدين ضعيفين امام الفلسفتين الوضعية والمادية .

ولقد قال البابا لاوون الثالث عشر « اذا رأت فلسفة (بعض الكاثوليك) نفسها احياناً انها لا تملك القوة الكافية لصد هجمات العدو فعليها ان لا تنسب سبب ضعفها وخطائها الا الى ذاتها » (Léon XIII. Encyclique Æterni Patris) وفي الحقيقة اننا لا ننفك عن مشايعة ديكارت آراءه بدون معرفتنا وبدون ارادتنا وهذا ما ينبغي لنا ان نأخذه بعين الاعتبار :

فالامر الاشد فائدة في المنهج الفلسفي ليست النظريات وانما روح هذه النظريات .

ولقد ظلت روح بيرون (Pyrrhon) قائمة بعد اندثار فلسفته وتقلقلت شيئاً فشيئاً في الندوة العلمية وزعزعتها وكذلك عاشت روح ديكارت بعد موت نظرياته وما برحت تشل حتى في يومنا القائم نهضة فلسفتنا المدرسية .

وفي غضون الثلثين الاولين من القرن التاسع عشر برز على المسرح آية من

آيات الساعة هو تابارلي دازغليو (١٧٩٣—١٨٦٢) (Taparelli d'Azeglio) احد مؤسسي الـ (Civilta Cattolica) مجلة الآباء اليسوعيين الايطاليين الشهيرة . ولقد تكلفوا اولاً ان لا يروا فيه الا عالماً « ايديولوجياً » خيالياً نوعاً ما ، وفي الواقع لقد كان سابقاً لعصره واوشك ان يكون نبي علم الاجتماع وها هوذا التطور الفكري يقيم الدليل على ذلك وها هي ذي تجارب القرن العشرين تفصح كل الافصاح ان « جامعة امم » (Ethnarchie) لم تكن وهماً من الاوهام ولكن واجباً . اما كتابه « نظريات الحقوق الطبيعية المستندة الى الوقائع » فقد تُرجم الى الفرنسية ، الطبعة الثانية سنة ١٨٧٥

وكان اليوم الرابع من آب سنة ١٨٧٩ يوماً مشهوداً في تاريخ الفلسفة بالبراءة (Æterni Patris) التي بعثت بعثاً حاسماً نهضة فلسفة القديس توما ولم تلاشِ جميع اختلافات وجهات النظر ولا ادعت انها تريد ملاشاتها لان تعلم الفلسفة ليس بسياط السلطة ولان الحرية ضرورية للمفكرين ولكن ضمن نطاق العقل الرشيد ووفق الصراط الديني القويم . نعم انها ضرورية للمفكرين حتى حرية التردد والضلال كما اعلن ذلك في احد الايام البابا لاوون الثالث عشر للمنسنيور دولست (Mgr d'Hulst) . راجع : (*La vie de Mgr d'Hulst*, par Mgr Baudrillart, tome I, p. 456).

واننا ما برحنا نلحظ قبل البراءة وبعدها — ولو بشكل نزعة — التيارين الفردي والاجتماعي . وحيال الضلال الحديث لا يزال كثير من الكاثوليك يحتفظون بموقف يوشك ان يكون موقف دفاع فقط واذا ما اقدموا على ردة فعل كان اقدامهم في تبني المعارضة .

فاذا ما علّل روسو اصل المجتمع قائلاً انه قد تألف بمعاقدة حرة فينكرون ان يكون للارادة اي نصيب في ذلك ، واذا جعل مصدر السلطة الشعب وحده فيقولون ان الشعب ليس له فيها اي عمل . واذا قال كنت (Kant) ان الواجب يقرره العقل الانساني المستقل ، انكروا كل استقلال للارادة وحللوا الوازع الاخلاقي بارادة الله وحدها . واذا شرع اولو النظرية العضوية الذين يرجعون الفرد الى حالة الخلية في الجهاز الاجتماعي يتوسلون بمقارنات وهمية من بنات خيالهم الطليق فيقولون مثلاً : عاصمة = رأس ، دماغ = حكومة ، قلب = كيس ، خلية

تمتص الاغذية = شرطي، النسيج الشحمي = كبار اصحاب الدخل، انكروا كل مقارنة ومقايسة. واذا ضحّى هيجل (Hegel) بالاستقلال الفردي في سبيل الدولة المطلقة وهي الجسم الوحيد المستقل وموضوع الحقوق الوحيد انكروا مكانة الاجتماعية الرفيعة وانكروا الكائن الاجتماعي في سبيل الحفاظ حفاظاً افضل على الشخص الانساني وطوّبوا الحقوق الفردية وقدّسوها وجعلوها محور الفلسفة الاجتماعية.

واراني لست مبتدعاً شيئاً في ما قلته : وها هي ذي تأكيدات مضبوطة في هذا الباب : المجتمع هو حالة أشياء وليس شيئاً وهو نمط كيان وليس كائناً.
(Deploige, dans *le Conflit de la morale*, p. 193)

ان المجتمع « شيء مجرد ... فهو موجود فقط في عقلنا وجوداً متميزاً عن الافراد الذين يؤلفونه ».
(Bayoert, dans *Trois leçons*, p. 16, 17)

ان الشخصية المعنوية ليست « حقيقة واقعية ولا وهماً ولكنها مفهوم ».
(Renard, dans *le droit, la justice et la volonté*, p. 68)

« ان الضمائر الفردية هي الحقائق الواقعية الحية وحدها ».
(Bureau, dans *Introduction à la méthode sociologique*, p. 199)

الحقيقة الواقعية الاجتماعية ؟ ؟ « انها غول من بخار » « انها قصة رمزية جرمانية » ...

ولماذا لم يحتفظوا بالتعريف القديم الذي على الاقل كان له الفضل في ان يكون واضحاً : وهو « ان المجتمع إضمامة اصطناعية » وذلك ما لم نفضل تعريف تارد (Tarde) ومفاده « ان المجتمع هو جملة من الناس الذين يحتذي بعضهم ببعض ».

واطلقوا على نظرية الكائن الاجتماعي هذه اسم «نومينالِيسم» (Nominalisme) اي اسم بلا مسمى لان المجتمع في نظرهم عبارة مشتركة لا يقابلها شيء غير مجموعة افراد.

وبالاستناد الى هذا الفرض ما يكون مصير الحقوق ؟

ومما هو مشترك بين الفلسفة القديمة وفلسفة العصور الوسطى الفردية ان الحقوق هي

امر اجتماعي. اما ذوو مذهب «النومينياليسم» فيقولون ان اساس الحقوق يقوم على سلطة الارادة ومرضوعها الفرد وحده .

(cf. Chénon, dans *le rôle social de l'Eglise* p. 174)

واذا ما جعلوا محلًا للحقوق الاجتماعية فانهم يجعلونه في نطاق ضيّق كل الضيق او بالحري نافلٍ .

وثمت مؤلفات ما زالت قيد التعليم فيها وهي من مستوجبات الفردية ، الى جانب هذه الفلسفة المدرسية المزعومة تقوم فلسفة القديس توما الحقيقية المشروعة التي تفرض نفسها بازدياد وذلك في الجامعات نفسها .

وفلسفة القديس توما بدلًا من ان تنحاز بعنف الى تبني الجهة المعارضة لتعاليم الخصوم تعمد الى وزنها وكشف قناعها وتسلخ ما حوته جميع ضروب الالحاد من الحقيقة .

ولقد اعرب القديس اوغسطينوس خير اعراب عنها بقوله :

« *Philosophi autem qui vocantur, si qua forte vera et fidei nostrae accomodata dixerunt... non solum formidanda non sunt, sed ab eis etiam tanquam iniustis possessoribus in usum nostrum vindicanda* » (*De Doctrina Christiana*, L. II, ch. 40 ; P.L., tome 34, col. 63).

ولم اشأ ان اعرض هنا كل تعليم القديس توما الاجتماعي وانما سأتصدى فقط الى ذكر بعض المبادئ الميتافيزيقية التي تقوم على اساسها . ولن نقتنع على شاكلة معظم الخصوم بان نجزم بقوة بصحة النظريات التي نرتاح اليها ولكننا سنقيم الحجة على صحتها :

١ — ان الوحدة صفة الكائن الجوهرية وعلى قدر تفاوت درجات الكائن تتفاوت درجات الوحدة .

٢ — كل كائن في العالم هو نظام واحد ومتعدد ومركب من اجزاء .

٣ — ان مبدأ الوحدة الاشد فعالية ليس الاستمرار المادي الذي ليس الا استمرارًا ظاهرًا في الكائن المركب . فالذي يوحد الاجزاء بقوة اعظم هو الغائية الباطنية تبدع تنوع الاجزاء وأكمالها بعضها ببعض .

٤ — ان وحدة الاجزاء الداخلية وحتى استقلالها النسبي ليس عائقًا في سبيل تركيبها .

٥ — ان العفوية وحتى الوجدان ليسا عاملي تقسيم ولكنهما واسطة لتحقيق وحدة نظام اسمى .

٦ — ان الوحدة العليا تتمّ بالمعرفة والمحبة .

ولقد اخذت الراسمالية الحرة بالاحتضار اما الفردية فلا تموت . ولذلك فانا لا اتحدث عن عبادة القيم الفردية المشروعة وعن احترام الشخص لانهما جوهريان ولهما مكانتهما في اجتماعية معقولة . وانما اتكلم على عبادة الفرد عبادة الصنم وتفضيل « انانيته » المفسدة بنزعات الاثرة ونسيان المجتمع والخير العام والهمّ بان لا يتعاون مع احد الا في سبيل منافعه الخاصة . . . ومن نكد الدهر لقد اصبحت جميع هذه الامور طبيعية منذ الفردوس الارضي .

ولا تستطيع الفردية كتعليم الا ان تعيد نفسها . والتعليم بحد ذاته بسيط لانه يطرح من الحقيقة الواقعية والمثل الاعلى الانسانيين اسمى ما فيها من روحي وارفع ما يحويانه من اسرار بيد ان شروط الحياة المتقلبة لا بد لها من ان تفرض دائماً اشكالاً جديدة كما رأينا ذلك في الماضي . فالاجتماعية نفسها قد تقدّمت سواء أكان تقدّمها من حيث التعليم ام من حيث الحياة ولن تنفك عن التقدم . فالعالم اليوم في اختمار ونضوج . وعلى ما في نظرية اجتماعية الدولة والشيوعية ذاتها من تطرف فانهما يبديان اندفاعاً نحو الوحدة كما ينزع العالم الديني اليها .

ويعترف ذوو الارادة الحسنة الآن بان انفصام الوحدة المسيحية قد كان آفةً عليها وهم يسعون الى ان يعيدوا اليها تماسك اجزائها .

وفي داخل الكنيسة الكاثوليكية ذاتها قد تعمق معتقد الوحدة وقد نما تعليم الجسد السري في كل الاتجاهات كما نما علم الاجتماع .

ولا مجال يدعو الى الاستغراب فان التعليم الانجيلي الادبي لا يعارض التعاليم الادبية العقلية وانما هو يستوعبها ويكملها . والمحبة الفائقة الطبيعة التي نُفخت فينا تتمم المحبة الطبيعية المكتسبة . وهبات النعمة تتجاوز عامة الطبيعة تجاوزاً لا حدود له وانما لا تهدمها بل تفرض قيامها دائماً .

ولا غرو ان ينسجم هذا التقدم في كلتا الناحيتين وان يتبادلا التأثير .

ومن المحتمل ان يكون درس الجسد السري اللاهوتي قد استفاد من تقدم علم الاجتماع وانه لواضح ان عقيدة الجسد السري هي عون ثمين لنا لتفقه الطبيعة الاجتماعية .

(cf. *Corps mystique et humanité contemporaine* par le R.P.Mersch, dans *la Nouvelle Revue Théologique*, Mars 1935, p. 225 sq.)

وحيال هذا التقدم المزدوج نستبيح لنفسنا ان نرى قيام جمعية انسانية موحدة سياسياً لا عن طريق الغاء الوحدات القومية بل باتحادها المتحقق . اما هذا الاتحاد الطبيعي العظيم فلا يتم طبعاً الا بالنعمة التي تبناها المسيح برمتها لتؤلف من الناحية الدينية حظيرة واحدة تحت حماية راع واحد .